بلاغة الخطاب في رسالة ابن الدودين ردّاً على ابن غرسية
دراسة في ضوء نظريّة الحِجاج

نزار قبيلات*
بلسم العمري**

مدخل:

ترصد الدراسات التاريخية والأدبية ظهور تيار شعوبي في بدايات القرن الخامس الهجري من العصر الأندلسي[١] يرجع سبب تخلُّقه إلى مدة «انتشار عقد الخلافة وتمزق البلاد إلى دويلات مستقلة يتناهب الحكمَ فيها الصقالبة والمولدون والموالي والبربر»[٢]، ضعف معها الكيان العربي وأخذ بالتراجع والتقهقر. ولا غرو أنّ ملامح هذا التيار قد انسربت إلى النتاج الأدبيّ وتركت بصمتها فيه لا سيّما في فنّ الرسائل الأندلسية، وقد تَوّج أبو عامر أحمد بن غَرسِية[٣] انسراب هذه النزعة إلى ذلك الفنّ بتدبيجه رسالته الشهيرة التي ذمّ فيها العرب وحقّرهم، وافتخر بقومه العجم[٤] مُحاولاً الإعلاء من شأنهم، فقد كان شعوبيًّا شديد التعصّب للفرس كارهاً للعرب. غير أنّ ردّاً من ذات الجنس الأدبي أتى به الأديب أبو جعفر أحمد بن الدّودين البلنسّي[٥]، استلهم فيه مآثر العرب وتاريخهم العريق، وعمِد في رسالة الردّ والدحض تلك إلى تفنيد ما جاء به ابن غرسية جلّه[٦]، كاشفاً عيوب العجم ومثالبهم كردٍّ فرضته فحوى تلك المنازلة الحجاجيّة وطبيعة ذلك الخصم. وينبلج ههنا تساؤلٌ ملحّ لا يلتفت هذه المرة إلى جمالية الخطاب الأدبي بقدر ما تنحصر عنايته بمدى نجاعة مسعى المخاطِب منها في دحض افتراء خصمه وادّعائه، وكيفية اقتناعه والمتقبّلين جلّهم بحجته وبرهانه وإذعانهم لصالح مقصوده في خطابه. وعليه فمعقِد القيمة ههنا

لن يكون موصولاً برصد مكوّنات الخطاب من وجوهٍ لغوية وأخرى بلاغيّة عُدِل بها عن غيرها في كلّ رقعة منه؛ فذلك مشغل لغويّ وبلاغيّ صِرف تنحصر معه وظيفة الخطاب بمنزع التزويق والتحسين، على أنّ مشغلنا ههنا معقود بإشكال أكثر دقّة ومراوغة مؤسَّس على كيفية نهوض أفانين اللغة والبلاغة تلك حُججاً ورصد ما ينجرّ عنها من أدوارٍ تسهم في رفد حجاجيّة الخطاب وتدعيم ما له من طاقة في الإقناع والإفحام كونها من أجدى وسائل الفعل في المتلقي وتحريك وجدانه وتوجيه سلوكه الوجهةَ التي يرتضيها المحاجّ لما لها من طاقة في الاستمالة والتأثير حيناً، والقسر والتبكيت آخَر.

وعليه، فبعد مخْض متنَي الرسالتين وجدنا الغاية المستجلَبة من مضمون رسالة ابن الدودين قد تجلت في هيأة خطاب حجاجي دبّجه بغية الفعل في المتلقي (أو المتلقين) وجعله يسلّم بفحواه، وذلك بعد أن تعاضدت الحُجج في خطابه مرسّخة أطروحاته ومقاصده كافة لتكون بذا قد فعلت فعلها فيه بإقناعه أو إزعاجه أو إخراجه عن اطمئنانه، فتسُدّ السبيل عليه بعد أن لم يجد منفذاً لاستضعافها والخروج من ثمة عن دائرة فعلها، مؤدياً بذلك سبقاً وفوزاً في تأخير خصمه عن بلوغ عين غايته. وتأسيساً عليه، فلعلّ من أجدى المَلاحظ تسويغاً لفكرة مواجهة خطاب ابن الدودين حجاجياً وجود منازعٍ يقف في حالة السلب والضدّ منه، إذ كلاهما يتنازعان الفوز والقبول لطرف متلق عامّ بعينه يشكّل رأس الهرم والبغية المنشودة من فحوى الترسّل، ولعلّ ذلك مما يجعل اقتحام هذا السّاح محاولةً مغريةً وخصبةً بتساوقها وقوانين نظرية الحجاج.

تَوّج ابن غَرسِية هذا الفنّ بتدبيجه رسالته الشهيرة التي ذمّ فيها العرب وحقّرهم. غير أنّ ردّاً من ذات الجنس الأدبي أتى به ابن الدّودين البلنسيّ استلهم فيه مآثر العرب وتاريخهم العريق.

الإطار التنظيري: فحوى الممارسة الحجاجيّة:

في مفهوم الحِجاج:

عرِّف موضوع الحجاج وغرضه بما هو (بلاغة جديدة) بأنّه «درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التسليم بما يُعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم»[٧]، إذ الغاية العظمى من كلّ حجاج تؤسَّس على كونه «يجعل العقول تذعن لما يُطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان؛ فأنجع الحجاج ما وُفِّق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب إنجازه أو الإمساك عنه، أو هو ما وُفِّق على الأقلّ في جعل السامعين مهيئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة»[٨]. ولعلّ القول الضمني المستبطَن له دور أي دور في عمل المحاجّة كونه إنجازاً لعملين؛ مدار أوّلهما على التصريح بالحجّة، أما الآخر فعلى الاستنتاج؛ ومن ذلك ما أُطِّر به الحجاج بأنه «دراسة العلاقة بين ظاهر الكلام وضمنيّه»[٩]، وما أسِّس عليه من تقديم «المتكلم قولاً موجهاً إلى جعل المخاطب يقبل

درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التسليم بما يُعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم

قولاً آخر، سواء أكان القول الثاني صريحاً أو ضمنياً، وهذا الحمل على قبوله على أنه نتيجة للقول الأول يسمى عمل محاجة»[١٠]، فيكون الخطاب بذا الفهم سلسلة مبنية على تتابع الأقوال تتابعا صريحاً أو ضمنياً، على أنها كثيراً ما تتفاوت في ميزان القوة والضعف على اعتبار النتيجة فيما يشار إليه بـ»السلالم الحجاجية»[١١] تأسيساً على نوع الحجة حيناً، وعلى طبيعة المكونات اللغوية التي تحدد معنى الجملة وتضيّق أو توسّع من احتمالاتها الحجاجيّة فيما يسمى بـ»الروابط والعوامل الحجاجيّة»[١٢]. وعليه، فالحجاج علاقة دلالية تربط بين الأقوال في الخطاب تنتج عن عمل المحاجّة، لكنّ هذا العمل محكوم بقيود لغوية. أمّا البلاغة؛ فشأنها في الحجاج عظيمٌ مُتعالٍ لدرجة حدّ بعض المنظرين الحجاج بها وطابقه معها، وعلى رأسها (المجاز) الذي يعتبر مُشكِلاً يستوقف المخاطَب في الخطاب ليستنتج منه مؤدَّى الحجة بناءً على «نظرية المساءلة»[١٣] المتصلة بـ(سؤال/ جواب)؛ إذ هو عندهم «يخلق المعنى ويصدم كلّ من لا يشاطر المتكلم وجهة نظره، وهو إلى ذلك طريقة التعبير عن الأهواء والانفعالات والمشاعر التي هي صور من الإنسان مثلما يكون المجاز صورة من الأسلوب».[١٤]

ومن الضرورة الإشارة إلى أنّ ما سلف تفصيله من محاولات أُطِّرت بها نظرية الحجاج عند أبرز منظّريها من مثل بيرلمان وتيتيكاه Perlman et Tyteca، وديكرو أوسكمبر Anscombre et Ducrot، وميشيل ميار Michel Meyer، وغيرهم لم تأتِ اعتباطاً، بل إنهم واصلوا بها سُنة قديمة جذورها ضاربة في الفلسفة اليونانية ممثَّلة بما اختطّه أرسطو طاليس[١٥]؛ ذلك أنّ مهد النظرية الحجاجيّة قد تبلور على يديه من حيث أُسِّست مراحل القول الحجاجي في العرف الأرسطي على عناصر ثلاثة هي: (البصر بالحجة، وتعهّدها بالأسلوب، وترتيب أجزاء القول)[١٦] وتُستخلص من قوله: «إنّ اللاتي ينبغي أن يكون القول فيهن على مجرى الصناعة ثلاث: إحداهنّ الإخبار من أيّ شيء تكون التصديقات، والثانية ذكر اللاتي تستعمل في الألفاظ، والثالثة أن كيف ينبغي أن تنظّم وتنسّق أجزاء القول»[١٧]. ينضاف إليه ما كان فصّله من ضروب التصديقات (الحُجج)، وأنّ منها ما يكون بصناعة ومنها بغير صناعة، أي أنّ منها ما يُستعمل فيحيل المتكلم إلى أقاويل قبلية فيها طاقات كامنة، ومنها ما يُستخرج ببراعة منه ويُدرَج في حركة حجاجيّة محققة لمقصديته.

أمّا العرب، فلقد ارتبط مصطلح الحجاج عندهم بصناعتي الجدل والمنطق فأسِّس على سبيل صارمة في الاستدلال العقلي الخالص المعزول عن أيّ معطىً عاطفيّ، ولعلّ هذا ما جعل اصطلاح الحجاج في منأىً عن تقاليد بلاغة القدامى وفنون قولهم منظومِها ومنثورِها، وظلّت البلاغة عندهم على انحسارها

وضيقها في التقاليد المحسّناتيّة وإغضائها عن المساعي الحجاجيّة التي لا يكاد يبــرأُ منها خطاب، «ولم يدُر في خلدهم أنّ إحــكام القول يأتي أيضاً مــن الحُجج التي يبنيها، والسياســة التي ينتهجها فــي ترتيبها لتتضافر مع الشّكل والهيئة ويبلغَ النصُّ من سامعه قصده»[١٨]، على أنّنا لم نعدم لديهــم إلماعات تنبئ بكونهم وعَوا حضور ضربٍ مخصوصٍ من عمل المحاجّة في الأدب بقولهم إنه قدٍ يكتســي صبغة الجــدل وينهج ســبيله حيناً[١٩]. والحقّ أنّ حظّ النثر من هذا القول كان أوفر من الشــعر؛ كونه كثيراً ما ينهض لعمــل المماحكة ويحفل بميادين المجادلــة والتبكيــت أكثر من احتفالــه بملاحظ فرادة الصورة ووقع الموسيقى.

إنّ كلاًّ مــن البــاث والمتلقي ذاتــان متجذرتان في الخطــاب الحجاجيّ بما يجمعهما مــن علاقة تحاورية تفاعلية تؤسّــس في الخطــاب جــراء انخراطهما معاً محملين بنوازعهمــا وبمرجعتيهما الثقافية لبلورة منطق الممارســة الحجاجيّة[٢٠]، ولعلّ هــذا المثلث (الباث، المتلقي، الخطاب) يتبلور ليشكل عناصر تلك الممارسة التي بها تُرتَهن نجاعة الخطاب، ويمكن القول إنّ رأســه المتلقــي كونه المطالَب بإنجــاز محمولاته؛ «فأي نص يحيل إلى قرّاء أو سامعين لم يكن يفترض وجودهم ولا ســاهم في إنتاجهم، يصير عصيّا على القراءة، أو يصير نصّا آخر مختلفــاً»[٢١]. ويحضرنا ههنا أُلِف من تصنيف للمتلقين؛ إذ هما نوعان[٢٢]: «المتلقي الخاص» المحدّد فــي الخطاب تحديداً صريحاً صارمــاً وهو غايته وعين مقصوده لوجود طارئ بينه وبيــن منتج الخطاب، وإليه يُصار الكلام بالإحماد أو الإذمام أو التقريظ أو الإحسان أو التوبيخ[٢٣]، و»المتلقي العام» المفارق أو المشــارك لفضاء المتكلــم زمانياً أو مكانيــاً أو كليهما، ويضطلع بوظيفة «تحقيق المثل الأعلى الحجاجيّ».[٢٤]

إنّ تناولنا لرسالة الردّ التي أنشاها ابن الدودين صدَر عن إدراكٍ للقصد الذي وَظّف لأجله تقنياته الخطابية ردّاً على الهجوم ودفاعاً عن ســمعة العــرب، فنكون بذلك قــد وقفنا عند إطار الموقف التواصلــي المبني على ردّ الإســاءة الموجَّه له ولقومه وفــق مقتضيات الحال[٢٥]. كذلك فإنّ في رســالة ابــن الدودين تحديــداً صريحاً ودقيقــاً للمتلقي الخــاص وهو هنا ابن غرســيه الذي وُجّه له الخطاب الحجاجي بعــد أن توفّر الداعي، وهو ما دفعه إلى تحديد وجهة خطابــه فيضيق أفق الخطاب عن كل ما من شــأنه أن يُفسَّر بعيداً عن المتلقي المحددة هويّته[٢٦]. وعليه فإنّ المخاطَب الحقيقي المقصود قد لا يكون هو ذاته الموجّه إليــه الخطاب، فقد يوجَّه الكلام إلى شــخص – أو أشــخاص– آخر مغاير، بل قد يُعنى بالخطاب ذاته أكثر من متلــقٍ مقصود[٢٧]، فثمة جمهور من المتلقين منهم من يقف علــى الحياد ينتظر أن يميل لطرف على حساب آخر بتأثيرٍ فاعلٍ من الحجة المقدمة من المرسِلين. وعليه، فمن ســيقرأ رسالة ابن الدودين يجد نفســه ملزَماً لأن يعي مســوّغ هذا الــردّ وأن يطّلع بعده على رســالة ابن غرسيه التي أثارت نوازع الردّ عند ابن الدودين، فكلاهما يحاول إغراء جمهور القراء ذاته وحثّه على الإذعان بما يحتّم على المرســل أن يضع في حسبانه مستوى العقول ونوعيتها والأرضية الثقافية التي

تقف عليها؛ فليس الحجاج إلاّ «دراسة لطبيعة العقول، ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها».[٢٨]

سمات الخِطاب الحِجاجي:

أولاً: القصد المعلن (الغائيّة):

إنّ الخطاب الحجاجي خطاب موجّه وغائي له مؤداه، وتتحدد غايته القصوى في حمل المتلقين على الاقتناع بما هو محمّل فيه من آراء وطروحات[٢٩]، بل قد «يحاول الباث إقناع المتلقي من دون إنشاء اقتناع حقيقي فهو نصٌّ يلزم صاحبه على نحو صارم بما جاء فيه، بل يورطه بشكل واضح وجلي»[٣٠]. وقد أطّر ابن الدودين توجهات خطابه قاصداً تغيير أفكار المتلقي السلبية نحو العرب، والتي نتجت عن تلق مسبق حفّزته رسالة خصمه، فرسم قصده وفق حركة استدلالية تتناسل وفق رسم منهجي خطط له وهيأه، وذلك من خلال «ترتيب عقلي للعناصر اللغوية»[٣١] والبلاغيّة والمعرفية في نص الرسالة لتحقيق ما تصبو إليه نفسه وهو «نفاذية خطابه»[٣٢].

ثانياً: الاتساق:

يلزم النص الحجاجي لبلوغ مراده أن يكون متسقاً ومنسجماً في بنياته وإحالاته؛ فلا «تُخالف نتائجُه مقدماتِه، ولا تُناقض أوائلُه أواخرَه، ولا تُعارض دقائقُه مقدماتِه»[٣٣]، فالأمر رهين بمعرفة المخاطِب نفسية متلقيه وأفق تقبّله، فالمرسِل المتمكن مَن «يأتي بالفكرة الواحدة على أنحاء مختلفة فيتجلّى في نصّه سحر البيان، وتتأكد فيه فتنة الكلام».[٣٤]

ثالثاً: التحاور:

لعلّ فكرة التحاور تنبجس من ردودٍ واستقبالاتٍ تُبنى على توجهاتٍ ورؤىً عديدة تخالف بعضها وتتباين حدّ التناقض حيناً، ونحن ههنا بإزاء رسالتين: الأولى، رسالة ابن غرسية، تعرض وتتقدم؛ والثانية، رسالة ابن الدودين ترفض وتدحض وتستجيب بفعل الأثر النفسي والانفعالي؛ وإنّ ذلك يستدعي طرفاً ثالثاً هو المتلقي العام بوصفه هدف المتحاججين والحكَم على خطابيهما، وههنا يتقهقر القول بأن الحجاج حوار ثنائي لصالح القول بأنه تحاورٌ يستدعي تعدداً في الرؤى وفي مستويات الأخذ والعطاء ودرجات القبول والرفض.[٣٥]

رابعاً: المرجعية العلمية والموضوعية:

ويعني ذلك أن يتوافر الحجاج على خلفية علمية منهجية تنداح في أحكام أربعة يُشترط توفّرها في الممارسة الحجاجيّة وهي[٣٦]: حكم الإحاطة؛ أي أن يقدم طَرفا الحجاج معلوماتٍ دقيقة وحُججاً مقبولة، وأن يعرضا استدلالات تحيط بالقضية المتنازَع حولها. وحكم الصّدق: وهو متعالق بسعي طرفَي الحجاج لبلوغ إقناع صحيح صادقٍ مرتبطٍ بالحقيقة الموضوعية. وحكم الوضوح: ويُقصد به ضرورة توخّي الحُجج البيّنة الواضحة التي لا تقبل التأويل ولا تحتمل الغموض.

إنّ الخطاب الحجاجي خطاب موجّه وغائي له مؤداه، وتتحدد غايته القصوى في حمل المتلقين على الاقتناع بما هو محمّل فيه من آراء وطروحات

وحكم السّـداد: الذي يكفل للعمليـة الحجاجيّة بلوغ نتائجها السليمة المتوخّاة.

استراتيجيّات الخطاب الحجاجيّ:

لا يترسّـم الخطاب الحجاجـيّ منحناه دون الأخذ باعتبارات مقاميّـة ملحّة تتصدّرها طبيعة العلاقة القائمة بين البـاث والمتلقي، فيتلـوّن الخطـاب بإزائهما تبعاً للنوازع والظروف التي أحاطت بتلك العلاقة، «فالباث يعوّل علـى الحجّة كدليلٍ يلتمسـه في إنتـاج الفعالية الخطابية والقصديـة المتصلتين باللغة التي تنطوي على أقـوى مظاهر القصديـة»[٣٧]. وأياً كان مـن أمر، فتبدو لنا محاولـة عبدالهادي الشـهري فـي تفنيده ضروب الاسـتراتيجيات الخطابيّة المؤسسة على معرفة العقول واختيار أقصر الطرق لمخاطبتها محاولةً مغريةً تُعين في تعزيز الفهم المعمق لشـكل تلك العلاقة ومآلاتها، من حيث محّص القول في اتجاهـات الخطاب وهيكلياته اسـتناداً إلى فحوى تلك العلاقة وما تؤسَّـس عليه من اسـتعمال لتقنيات اللغة بكيفيات متسقة تضمن تحقيق المقصدية [٣٨]:

١. الاستراتيجية التضامنيّة (التبجيليّة):

وفيهـا «يحاول المرسـل أن يجسّـد درجة علاقته بالمرسَـل إليه ونوعها، وأن يعبّر عـن مدى احترامه لها ورغبته فـي المحافظة عليها، أو تطويرهـا بإزالة معالم الفـروق بينهمـا، وإجمالاً فهـي محاولـة التقرّب من المرسَـل إليه وتقريبه»[٣٩]، فالغلبة ههنا لمنطق التأدّب مع المخاطـب وتبجيله إبقاءً علـى التراتبية بين طرفَي الخطاب، فنرى الخطاب يعـجّ بعناصر تعبر عن التودد والتعفـف وتأنيب الذات وتجنب الإلحـاح أو أيّ مبدأ يؤسِّـس لخرق ذلك المنطق، وهو ما يطلق عليه طه عبد الرحمن بـ«التخلُّق».[٤٠]

٢. الاستراتيجية التوجيهية (التوبيخيّة):

وهذه مبتغانا في دراسـتنا؛ إذ فيهـا يغلّب المتكلِّم مبدأ توجيه المخاطَب أو تحذيـره أو نصحه أو توبيخه على تقصيرٍ أو فعلٍ مُشينٍ كان منه على أيّ مبدأ آخر في الخطاب، حتى إنّ منطق تبليغ محتوى الخطاب المؤسَّس على الحط من شأنه وتصغيره وقضّ دعائمه يجاوز حيناً منزع تهذيب الخطـاب والعناية بطريقة إخراجه. وبهذا، «يكون استعمال الاستراتيجية التوجيهية نابعاً عن علاقة سـلطويّة بين طرفي الخطاب، وتتفاوت هذه العلاقة من التباين الشـديد حتى التقارب الملمـوس»[٤١]. وعليه، فتصنيع المخاطِب خطابَه ضمن هذه الاستراتيجية غالباً مـا يُبنى على إعادة هيبة الذات وتجسـيد مبلغ التفاوت في العلاقـة المؤطّرة لطرفي الخطـاب غير المتكافئين في الرتبـة، والتأكيد على حضورها فـي ذهن المتقبِّل، وعدم إغفالها ليجعله يعيد حسـاباته فيما صدر عنه من قول أو فعل ويتراجع عنه. وتأسيساً على ذلك نلحظ بأنّ اسـتراتيجية كهذه تخلو من الوسائل اللغوية التي تلطّف الخطـاب وتعجّ بخلافها فتبنى بأقصـر الطرق التبليغية الممكنة، وبأبعد درجة من الوضوح.

٣. استراتيجية الإقناع:

وتوصف بأنّها غيـر إكراهيّـة، إذ عمادها الحجاج المؤسَّـس على مطالبة الباثّ متلقيه مشـاركتَه اعتقادَه، على أنّ مطالبته هذه «لا تكتسي صبغة الإكراه ولا تدرُج

على منهج القمع، وإنّما تتبع في سبيل تحصيل غرضها سبلاً استدلالية متنوّعة تجرّ الغير جرّاً إلى الاقتناع برأي المحاور»[٤٢]. وعليه، فيؤسّس منطقها على محاولة المتكلّم سدّ الطريق أمام مخاطَبه لئلاّ يجد «منفذاً إلى استضعاف الحجة والخروج عن دائرة فعلها»[٤٣]. وإنّ كلّ سياق يستلزم من المخاطِب اقتناص أدوات لغوية وآليات بلاغية دون غيرها ممّا يجعل من هذه الاستراتيجية «ترجيحاً من بين خيارات بواسطة أسلوب هو في ذاته عدول عن إمكانات لغوية إلى أخرى يُتوقّع أنها أكثر نجاعة».[٤٤]

الإطار التحليلي: المستويات الحاضنة للحجاج

أوّلاً: مستوى لغة الحجاج:

في إطار محاولتنا ضبط الأدوار الحجاجيّة الحاضرة في نصّ رسالة ابن الدّودين وسعينا لرصد أبعاد ذلك وترجيعاته خرجنا بأنّ السواد الأعظم منها كان منجرّاً عن مراوحته بين تقنيات اللغة وتصرّفه في جداولها وعناقيدها؛ أي ما كان منها داخلاً في صلب الأساليب اللغويّة التعبيريّة وأنماطها التركيبيّة، كأن يُصار إلى العدول عن الخبر إلى الإنشاء وعكسه، أو أن يُعمَد إلى الاسميّة عوضاً عن الفعليّة. وإنّ مثل ذلك نابعٌ عن ضرب استراتيجيّة الخطاب الحجاجيّ التي صدر عنها وسعى إلى مواءمتها طبيعة مخاطبه والفعل فيه.

وعليه، فإنّ الضرورة الحافزة تُملي علينا تقصّي المكامن الحجاجيّة المنجرّة عن مثل تلك الاختيارات اللغويّة المؤسَّسة على الميل الظاهر لبعضها والتهميش المعلَن للآخر بما اصطلحنا عليه بـ«العدول» كما سيردف[٤٥]:

أ) العدول عن الخبر إلى الإنشاء:

علّنا نبيح لأنفسنا اعتماد النهج المألوف والمقياس التقليديّ في الفصل بين الخبر والإنشاء المؤسَّس على كونهما نقيضين متقابلين واحدهما أصلٌ في الكلام والآخر محمولٌ عليه، على الرغم من أنّ مثل هذا الملحظ المجحِف يحفّز في الدّارس تحرّزاً مبدئيّاً من أنّه – وإن كان فاشياً رائجاً بين بعض مَن حاول تقصّي مكامنه[٤٦] – لم يكن ليُبنى على وجه من الوضوح؛ ذلك أنّ الحدود الفاصلة بين الجدولين تكاد تكون واهية؛ إذ إنّ من العبارات لا هي بالاستفهام المحض الذي يتطلّب إجابة أو إقراراً بنعم أو لا، ولا هي بالإخبار المحض الذي يُفضي إلى الإثبات. على أنّه لمّا كان اهتمامنا منصبّاً على تتبّع مظاهر النجاعة الحجاجيّة الناجمة عن المراوحة بين أفانين ذينك الضربين، فإنّنا لن نخرج عن اعتماد ذلك نهجاً.

- العدول إلى الاستفهام:

ومن أظهر ما لمحنا حضوره ممّا هو منضو في عباءة هذا المستوى منزعُ العدول عن الخبر إلى «الاستفهام»؛ وإنّ ذلك لم يأتِ محض صدفة بل ما كان إلاّ لما يمتلكه هذا المكوّن الإنشائيّ من نجاعة حجاجيّة ملحّة، ومنه في رسالة ابن الدّودين ما نصّه:

١. «أين أمُّك ثكلتك أمُّك؟ أوَ ما علمت أنك إنما سُحِبْتَ من عِقالك لعقالك؟ وقدّمت أوّل قدمك لسفك دمك؟».[٤٧]

٢. «هل يجوز فـي التحصيل، أو يصحّ في العقول، أن يحميَ قومُك سـروحَ شـائهم، وقد أباحوا فروجَ نسائِهم؟ أليس هذا عين المُحال ومغالطة الجُهّال؟».[٤٨]

لمّا كانت النظرة إلى المخاطَب في النظريّة الحجاجيّة تؤسَّس على كونه عمودَها وسنامَها، فإنّ من ألحّ المَلاحظ التي تُرصَد في ميل ابن الدّودين لأسـلوب «الاستفهام» في غير موضع من رسـالته أنّ المعنى المنجرّ عن نمطه عادةً ما يقتضي من المخاطَب استحثاثاً لذهنه وتحفيزاً له على التقليب في وجوه القضيّة موطنِ الاسـتفهام، ومن ثمّة الإجابة عنه إن اسـتدعى الأمر ذلك. ولمّا كان هذا النمط اسـتنكاريّاً في معظم تلك المواطن مؤسَّساً على كون المسـتفهَم عنـه من قبيل المشـهورات في عوالم المسـتفهَمين وممّا قرّ في عُرفهم، فإنّ ذلك يقود إلى أنّ قصد ابـن الدّودين من النزوع إليه في مثل هذه المواطن إنما جـاوز غرض تطلّبه إجابة مقـدَّرة من مخاطَبه، بل إنّ هذا الأخير إنّما «سُـئِل عنها ليوجبها ويصادق عليها من تلقاء نفسـه، حتى إذا ما حصلت المصادقة – وهي لا بدّ حاصلة– كان ذلك وسـيلة للتّرقّي درجة في سلّم الإقناع»[٤٩] بجوهـر القضية محلِّ الاسـتفهام، فيكونَ بذلـك مبعثُ إقراره بخطَله وفسـاد مُعتقده حاصلاً من لدنه.

وبناء عليه، فإنّنا نكاد نجزم بأنّ الغاية العظمى من كلّ استفهام في أصل وضعه قد لا تنحصر في أن نفرض على المخاطَب به إجابة محدّدة يُمليها المقتضى الناشئ عن ذلك الاسـتفهام ليتمّ به توجيهُ دفّة الحوار الذي نخوضه معه الوجهة التي نريد، بل إنّ الوظيفة الحجاجيّة العظمى للاسـتفهام تنبني في أصلها على «جعل المرسَـل إليه يركّز على نقطةٍ ملحّةٍ في الخطاب، أو ليتحقّق المرسِـل من أنّ المرسَـل إليه مركِّز على نقطة محددة سلفاً»[٥٠]؛ ذلك أنّ صيغة التوجيه الاسـتفهاميةَ – بحسب بيرلمان وتيتيكاه– «نمط ذو أهمية بلاغيّة رفيعة؛ إذ إنّ السـؤال يفترض وجود أمر يُسـتند عليه، ويوحي بأنّ هناك اتّفاقاً على وجود ذلك الأمر»[٥١]، وإنّ أبلغ الحُجج وأظهرها إلزاماً للخصم ما نَطق به وساهم في صنعه، سيّما إن هو أُفرِغ بنبرة من السخرية.

وعليـه فالنمـوذج الأول واقع في مفتتح الرّسـالة الذي عمِد فيه ابن الدّودين إلى السّـباب والسخرية من ندّه وتذكيره بوضاعة شأنه، وإنّ ذلك يقتضي بالضرورة أنّ متلقّيه دونه منزلة وأقلّ شـأناً، وإنّ من أظهر المعاني المنجرّة عن بعثه جُمَله بالاستفهام في مثل هذا الموضع اسـتثارة ذهنه وتحفيـزه على التفكير ولو كان بسـيطاً، واتفاقه من ثمّة في صوغ محصلته مع المرسِـل كنتيجة حتميّة لذلك الحثّ والتحفيـز القاضي بالتهديد. ولعلّه بتوجيهه أسئلته القصيرة المتراسلة تلك إنّما حقّق مأربه المرجوّ مـن ذاك التهديد القاضـي بتحذيره من مصيره المُهين المتمثّل باعتقاله وسـفك دمه بعـد جرّه لحتفه بحبل يُساوق حبل البعير.

أمّا ثاني النموذجين ففيه ينتقل عن طريق الاستفهام من بؤرة التقريع الشـخصي المحصور بذات ابن غرسية إلى تشـويه فضائل قومه اسـتدلالاً؛ «إذ هـو يلج باب النقاش والجـدل، حيث يعمد إلى تخريـج ما عدّه ابن

غرسية مفخرة لقومه على أنّها معايب ومثالب»[٥٢]؛ فإن كان قد قال عن قومه إنهم: «الصهب الشهب»، ردّ عليه ابن الدودين بأنّهم: «الصُّهب السّبال من ولغ الدم وشُرب الأبوال... »[٥٣] وإن كان قد نعتهم بأنهم: «جمُح طمُح» فقد عابهم ابن الدودين بأنهم: «جمُح في الإحجام عن الإقدام، طلب الفرار يوم الانتصار وإدراك الثار، طمُح إلى كلّ رموح طموح، يطول الشِّبر ويطول الشَّبر... »[٥٤]، وإن كان وصفهم بـ: «حماة السروح بناة الصروح»، دعاه ابن الدّودين إلى التريّث والتمهّل لقاء رغبته بالمحاججة والمنازلة بقوله: «النَّصَفة يا كشاجم لا الأنفة، غُضّ قليلاً من طرفك، وامسك بعض عنان طَرفك، ولنتحاكم في ذلك إلى ظُرفك... »[٥٥]. ولمّا كان هذا النقض لمفاخرهم من حيث هم غير حقيقين بها، كان اتّكاء ابن الدودين على منطق الاستفهام ذاته، فكان أن سلّط بؤرة النظر على بعض عاداتهم الاجتماعيّة المغايرة لمنطق العادات العربيّة الأصيلة، وعلى رأسها «الإباحيّة ومزاولة الرذيلة وعدم الغيرة على نسائهم»[٥٦]. والرّأي عندنا بأنّ ابن الدودين قد وُفّق في هذه الرقعة من رسالته في الارتقاء درجةً بسلّم الحجاج؛ وذلك باستدراجه مخاطبَيه (الخاص والعامّ) للمصادقة على القضية موضع الجدل بأنّ ما حاول ابن غرسية إقناع ثانيهم به من كون عِترته أشرافَ القوم وصدورَهم المقدّمة ما هو إلاّ ستار قد حاول به مداراة رذالتهم ودناءة منزلتهم إن هم قورنوا بالعُرب؛ وذلك لأنه أسّس موضوع الاستفهام هذا بالاتكاء على مُستَند العقل والمنطق بقوله: «فهل يجوز في التحصيل، أو يصحّ في العقول»[٥٧]، وبَناهُ على ما هو من قَبيل المشهورات القارّة في أذهان الناس؛ إذ لا يصحّ في العقول أن يحمي قوم سروح شاههم وقد اطّرحوا حماية فروج نسائهم، فمن باب أولى أن يُصار إلى المهم فالأقلّ في الأهميّة، وإنّ في الاستفهام المبسوط له بهذا المهاد «توجيهاً للمرسَل إليه إلى خيار واحد لا ثاني له متمثل بضرورة الإجابة عليه بلا أوّلاً، ومن ثمّ فإنّه استعملَ ذلك للسيطرة على مجريات الحوار وأذهان المخاطَبين، وتسيير الخطاب الوجهة التي يريدها هو، لا حسب ما يريدها الآخرون»[٥٨]، ذلك أنّ صيغة التوجيه الاستفهامية بافتراضها وجود أمر يُستند عليه ويوحي بأنّ هنالك اتّفاقاً مسبقاً على وجوده إنما هو من أبلغ الحجج وأظهرها إلزاماً للخصم كونه ينطق به ويسهم في بلورته وصنعه، فلا سلطة تعلو سلطة العقل والمنطق، ولا حجّة أظهر منهما حجّة ودليلاً على فساد معتقده.

- العدول إلى الشّرط:

١. «ولولا أنّي أُجِلّ قلمي وأنزه كلمي عن سخافاتكم في دياناتكم، وبِرسامكم في أحكامكم، لأوردتُ من ذلك ما لا يستجيزه إلاّ مثال قومك العجم، عقولِ البوم والرَّخَم».[٥٩]

٢. «صُبُرٌ وُقُر: إذا ثار الغبار، واسودّ النهار، وحسُن الفِرار، وذُهِلت الأذهان، وأُبهِم العيان، وتلجلج اللسان.....، فلا ترى إلاّ حزّ الغلاصم، وشَيْم الصّماصم في الجماجم، فهنالك تلقاهم، لا دهمك لُقاهم».[٦٠]

ممّا هو جليّ في أوّل النماذج أنّ طريقة استنجاز ابن الدودين لفكرة تمسّك قوم ابن غرسية بآرائهم الدينية

الضعيفة ومبادئهم الشرائعيّة الهزيلة جرت مجرى الشرط ترسيخاً من ابن الدودين لفحواه القاضي بترفّعه عن إيراد المزيد من سفاسِف تلك المبادئ والأحكام التي لا يستجيزها سواهم، وذلك لمسوّغ غايةٍ في الأهمّية متمثّلٍ بتنزيه ابن الدودين لقلمه وتقديسه لكلمه وحرصه على أن يربأ بهما عن مثل هذه السخافات. والرأي عندنا أنّ طريقة استنجاز الشرط ههنا كانت قد وفت بدفع المسار الحجاجيّ أيّما وفاء، وذلك من وجهتين: أولاهما أنّ جواب الشّرط قد جاء متأخّراً نسبيّاً عن مقتضى فعله؛ فقد حال بينهما زوجان من الجمل المترادفة في المعنى، والتي يمكن الاستغناء بإحداهما عن الأخرى، على أنّ التطويل النسبي في ذكر الجواب استتبع بالضرورة تطويلاً آخر لأفق انتظار المتقبّل في تصوّره ضروب إمكان ذاك الجواب التي ستزدحم في فكره كلما أُطيل عليه فيه. وثانيتهما ما قد وفت به طريقة استنجاز الشرط من حيث المغزى من تحقيقٍ لمنزع الوجازة جرّاء مقتضاه القاضي بالتزهّد في الخوض المطوّل في هاتيك المسألة وفاءً بفعل الشرط المذكور، على الرّغم من كوننا نرجّح بأنّ ابن الدودين آثر منزع التزهّد ذلك تبعاً لمضمون هذه الرقعة من خطابه، وأنّه من الحقيق به الاسترسال في المضامين الاجتماعيّة والعلميّة والعقليّة المنطقيّة على أنّ مثله مكروه في المضامين الدّينيّة إن تعلّقت بأهل الكتاب خاصّة، والحقّ أنّ منطق الوجازة النسبيَّ هذا ينطوي على وظيفة حجاجيّة أعمق سيتبع ضبطها في الإبّان.

كذلك فممّا جرى مجرى الشرط في رسالة ابن الدودين هذه ثاني النماذج، إذ فيه يدحض وسماً آخر كان ابن غرسيه وسم به قومه مباهياً يقضي بكونهم «صُبُر وُقُر»، على أنّ دحضه ذلك اتّخذ من الشرط سبيلاً أبلغ في نسف مُراده، ذلك أنّه لم ينفِ عنهم هذه الصفة على أنّه أسبغها على العرب في القسم الأخير من الرسالة، وكان أن ربطها بأعظم ميدانٍ ممكنٍ لها، وهو ميدان الحرب والنّزال إذا «ثار الغبار...، وحسُن الفرار...، وتلاطمت السيوف...، وحمي الوطيس...»[٦١]. وممّا يمنح طريقة استنجاز الشرط قيمة إضافيّة في دفع المسار الحجاجيّ تفوق ما سبقه ذلك التطويل المبالغ فيه في ذكر جوابه، «ولعلّ ذلك أمضى حجّة وأبعد أثراً من حيث إنّ المخاطَب بعد أن استُدرج استدراجاً مطوّلا لتلقّي الجواب على أهبة الاستعداد لأن يُصادق على فحواهُ؛ كون ازدحام تلك الجمل المتتابعة مدعاة إلى التعظيم والغلوّ والمباغة في تصوّره – كما سلف، فلئن اهتدى إليه بنفسه وتصوّره كان ذلك الجواب مدعاة لتسليمه به وإذعانه لفحواه، وأبلغ في ردعه وزجره عمّا يُكره منه».[٦٢]

- العدول إلى التحضيض:

إنّ ضروب الأمر تتماهى في الرسالة من زجرٍ إلى أمرٍ صريحٍ إلى آخَر مُموَّه به، وإنّ كلاًّ من هاتيك الضروب قد يفضُل عن الآخر بدرجته، على أنّها جلّها تشترك في مؤدّى في الحجاج واحد بحكم الاستراتيجيّة التوجيهيّة التي تؤسَّس في جوهرها على التصريح بأهليّة المخاطِب وعلوّ منزلته على منزلة المخاطَب، وإنّ من حقّه أن يوجّه إليه الخطاب بأسلوب قمعيّ. على أنّ من

ألحّ هاتيك الضروب -برأينا- التحضيضَ، ومنه ما نصُّه:

١. «فهــلاّ توهّمتَ يا فتى الجــوابَ قبل الخطابِ، وأبصرتَ الورطة قبل السّقطة؟!».(٦٣)

٢. « فهــلاّ يــا فتــى ثَقِفْــتَ، ودون هــذا الفصل وقَفْتَ؟!».(٦٤)

إنّ شأن «التّحضيض» في الحجاج عظيمٌ مُتعال، فهو «طلبٌ بشدّة وعنف، ويظهران غالباً في صوت المتكلّم أو في اختيار كلماته جزلة قويّــة»(٦٥)، و»إذا ولي أدواته المســتقبل كنّ تحضيضاً، وإذا وَلِيَهنّ الماضي كُنّ لوماً وتوبيخاً فيما تركه المخاطَب، أو يُقَــدَّر فيه التّرك»(٦٦)، وهذا ما يسمّيه السّــكّاكي بتوليد معنى «التنديم»(٦٧)؛ إذ يصبح معنــى الخطاب: «ليتكَ فعلت كــذا». والبيّن أنّ الموضعيــن اللذين وقع فيهمــا التحضيض من خطاب الرّســالة جاء قَفلاً لمرحلة مــن مراحلها، على أنّ ذينك الموضعيــن جاءا خدمة لمضمونٍ واحدٍ مؤسَّــس على فكرة المعايب والنّقائص الاجتماعية المتّصلة بالنِّســاء في مجتمع ابن غرســية، فمن حيث ادّعــى بدءاً كونهم حماةً للسروح وبعد أن نقض ابن الدودين هذه الدعوى بما ســلف تفصيله وهدم عليه صرحــه المزيّف آثر قفل هذه المرحلة من خطابه بصيغــةٍ لغويةٍ لها وقعٌ أيُّ وقعٍ في أذن المتلقّي ونفسه.

- العدول إلى القَسَم:

١. « فأقسم ببارئ النسم، وناشــر الأمم من رُفات الرّمَم، لأُصيِّرَنّ عليك أيّها السّخيف المضعوف -على نذالتك وفسالتك- عرضَ البساط، أضيقَ من سَــمِّ الخياط، ولأجمعــنّ...، ولأُخَلِّدَنّك سمراً غابراً...».(٦٨)

لا غروَ أنّ ما صُدِّر به النموذج الســالف من قسَــم لينطوي علــى وقع في الحجاج عظيــم؛ فالبيّن أنّه وقع في مفتتح الرسالة من حيثُ بدأها ابن الدودين بالتهديد والوعيد لابن غرســية على ما كان منه من إنقاص لشأن العــرب ورفع لشــأن قومه في رســالته، فحقيــقٌ بابن الدودين على البَدء قبل الشــروع بتفنيــد ما جاء منه في رســالته ودحضه أن يتكئ على آليّة لغويّة من شــأنها أن تعلي من أفق التوقّع وتضاعفه لدى المتقبّل اســتدراجاً له في استقبال ما ســيردّف من رقعة الرّسالة حتى يصير على أهبة الاستعداد للمصادقة على فحواه. وعليه فابن الدوديــن من حيث يتهدّد متلقّيه ويتوعّده، لم يكن ليجد أوفى من صيغة القسم الصّريح بهذا المطلب؛ إذ هو في ذلك الموضع يقســم بالله البارئ والنّاشــر بأنّه سيحيل عليه السعة في حياته إلى ضيق يفوق ضيق سَمّ الخياط، وأنّه ســيجمع بين صدره ونحره، ويخلط عظمه بعصبه، ويخلّــده بين الناس مثلاً ســائراً، ويشــوّه محيّاه إلى أن يحتزم بزنّــاره ملتحقاً بأدياره ومقرّ آله. والحقّ أنّه بذلك قد أقام الحجّة على مخاطبه وألزمه بها.

ب) العدول عن الإنشاء إلى الخبر:

ولئــن كان هذا الضــرب من العدول نــادر الورود في رقعة خطاب ابــن الدودين مقارنة بأفانين الإنشــاء

إنّ الخطاب الحجاجي خطاب موجّه وغائي له مؤداه، وتتحدد غايته القصوى في حمل المتلقين على الاقتناع بما هو محمّل فيه من آراء وطروحات

وضروبه كما سلف، على أنّ من الحقيق على الدارس أن يعرّج على بعضٍ من مسالكه وفروعه كونه لا يخلو من منزع في الحجاج بحالٍ، بل إنّه قد يبلغ منه مبلغاً لا مزيد عليه حيناً بحكم انفتاح الخطاب على المقام وطبيعة المخاطَبين ومنزلة الخاصّ منهم. وممّا جرى هذا المجرى في رسالة ابن الدودين ما يردّف:

- العدول إلى الحصر:

١. «فما حقيقة جوابك على خطَل خطابك، إلاّ سلبك عن إهابك... لكنّك بين همَجٍ هامج ورَعاعٍ مائج».(٦٩)

تطالعنا صيغة الحصر الواقعة في القسم الأوّل من الرسالة، والمتمّمة لمبدأ التهديد والوعيد الذي كان ابن الدودين ابتدر به رسالته مراوحاً بين ضروب الإنشاء أمراً فاستفهاماً، غير أنّ انتقاله ههنا لأسلوب الحصر ضاعف من متانة دعاماته الحجاجيّة من حيث رام تسليط بؤرة النظر في هاتيك العبارة على موضع بعينه دون غيره تأسيساً منه لمبلغ إلحاحه، فعينُ مقصوده في أوّل النماذج، ومعقِد اهتمامه تترجمه المحصّلة الحتميّة التي ستتحصّل لغريمه ابن غرسية لقاء تبجّحه في خطابه، والمتمثلة بسلبه مهابته وصلبه على بابه. والحقّ أنّ الحصر من أنجع الوسائل اللغويّة الحجاجيّة كونه مؤسَّساً على ملحظ «التبئير»، «وهو من البؤرة، ويفيد من النّاحية الاصطلاحيّة في علم اللسان انحصار الكلام في معنىً معيّن، بإلقاء الأضواء على العنصر الأساسّي فيه باعتباره مدارَ الكلام في الجملة، إذ هو يمثّل المعلومة المركزيّة فيها».(٧٠)

- العدول إلى النفي:

١. «فما عُجنا بهنّ عمّا عوّدتموهنّ من البغاء للاسترضاء».(٧١)
٢. «ولم يأخذوه عن نبيّ، ولا نقلوه عن حَواريّ، ولم يزالوا يتعاورون أصلهم الإنجيل بالزيادة والنقصان، إلى أن أصاروه في حيّز الهذيان».(٧٢)

ينتهض النفي عادة – شأنه بذلك شأن سائر ضروب الخبر– للتعبير عن القضيّة المطروحة على أنّها من قبيل المسلّمات، وبه يُعرَض الأمر على أنّه قد وقع وقُضي، وفي ذلك تقوية لحضوره في ذهن المتقبّل على وجه من الثبوت الذي لا يلتبس إلاّ باليقين، ومن شأنه إذ ذاك أن يكون أوكد في الزّج به في أحبولة الاقتناع أو التضليل وأبلغ في ردعه أو تحريكه. وهذا هو عين مراد ابن الدّودين في أول النماذج من حيث أراد أن يلبس تهمة البغاء والإباحيّة ومزاولة الرّذيلة بنساء قوم ابن غرسية، لدرجة لا يُمنَعْن معها من مزاولتها للاسترضاء مع العرب، إذ ما هنّ إلا إماؤهم المسبيّات، فكثُر معشر العربان من ولدهنّ. ولا يخرج ثاني النماذج عن المنزع ذاته في قولبة القضيّة وإلباسها بثوب من التأكيد تصبح معه من قبيل المسلمات، على أنّها إذ ذاك ممّا كان ابن غرسية نسبه لقومه فاستعاره ابن الدودين في سبيل نقضه ودحضه على الشاكلة نفسها التي بها دحض ما سواه من زائف الادّعاءات.

وكذلك فممّا يضطلع به الخبر بعامّة – والنفي بخاصّة – إثراء الجانب الوصفيّ في الخطاب، والقدرة على ترسّم صورة قارّة تحيي هذا الجانب وتضاعف

من وقعه الحجاجيّ، ويصدق هـذا المنزع في النماذج على رابعها؛ فقد استغلّت به صيغة النفي واستثمرت دون غيرها مضاعفة للطاقة الوصفية الإيحائية المؤسسة على وسم التخبّط الدينيّ والعوّز الشرائعيّ الذي يشوب معتقدات قوم ابن غرسية، فنخرج بأنّ من ألحّ ما يميزُ الخبر ممّا ليس في الإنشاء أنّ العمل اللغويّ القائم على ثاني ذينك الضّربين استفهاماً كان أو أمراً أو شرطاً «محفوفٌ شأن أيّ عمل لغويّ بمحبطات كثيرة قد تعوق تحققه وتعطّل تأثيره، ومن أجل ألاّ يكونَ محتواه عرضةً للفشل وعدم التحقّق وقع التعبير بواسطة الخبر عوضاً عن التعبير بالإنشاء، من حيث إنّ الخبر لا يُتَصوَّر وقوع خلافه، والإنشاء قد تقع مخالفته».[٧٣]

ج) العدول عن الفعليّة إلى الاسميّة:

تؤسّس الأدوار الحجاجيّة للعدول عن الفعليّة إلى الاسميّة مطلقاً على فرعين: مدار أوّلهما على ملحظ الديمومة والثبات اللذين تطبع بهما الاسميّة العبارة، وثانيهما على ما ينتجه التعبير بها من مبالغة وتأكيد للمعنى وإلحاح عليه مما لا تتوافر عليه الجملة المصاغة بالفعليّة، «وإنّ ذلك إنّما يؤهّلها أكثر في أن تكون مستنداً حجاجيّاً مؤكّداً وأداة تبريريّة مركّزة وحجّة دامغة»[٧٤]. ومن الحقيق القول إنّ هذا الرأي ما كان ليتحصّل عندنا لولا وقوفنا على كثير من جهود القدامى والمحدثين الذين تعهدوا هذه المسألة بالبحث والنظر، وإنّ من ألحّ ما يُرصد عندهم ما قد رجح عند ابن الأثير بما قوله: «وإنّما يعدل عن أحد الخطابين (يقصد الفعليّة) إلى الآخر (يقصد الاسميّة) لضرب من التأكيد والمبالغة»[٧٥]، كذلك فمنهم الزركشي بقوله عن العرب بأنّهم «إذا قصدوا الإخبار أتوا بالجملة الفعليّة، وإذا أكّدوا فبالاسميّة، ثمّ بها وباللاّم»[٧٦]، وتأسيساً عليه، نخرج على البدء بنتيجة مفادها أنّ الجملة الفعلية دون الاسمية من حيث طاقة الإخبار وقوّة الإثبات، وهما مختلفتان بالرتبة في درجة السلم الإخباري، وأنّ التعويل على الفعليّة حيناً إنّما يسلب العبارة ما لها من طاقة حجاجيّة في خطاب أسس في جوهره على الإقناع، أو التبكيت والإقماع.

وإنّ من ألحّ المواضع للجوئه إلى ذلك في نصِّها ما يردّف:

والحقّ أنّ نظرة مجملة لمتن رسالة ابن الدودين يفضي إلى الخروج بميله الواضح إلى الاسمية دون الفعليّة

١. « الصهب السّبال، من ولغ الدم وشرب الأبوال، أكلة الجيف، وحللة الكُنُف، الوضُح الرُّجُح: رجح الأكفال وضُحٌ كذوات الأحجال».[٧٧]

إنّ النموذج السابق ليعبر عن فحوى احتيج معه إلى نبرة من التشديد والمبالغة والتوكيد؛ ذلك أنّها جلّها تنقسم إلى قسمين: يُراد بأوّلهما إنكار ما كان من دعوى ابن غرسية لقومه من الصّفات النموذجية الكاذبة وإفحامه بضدّها، ويصدُق هذا في النموذج المطروح هنا.

وعليه، فلمّا كانت العبارات مصاغة في كلا ذينك الموطنين من الرّسالة بالاسميّة دون الفعليّة، فإنّ ذلك يقود بالضرورة إلى أنّ ابن الدودين إنّما رام صوغ أقواله فيهما على كونها بمنزلة الحقائق القارّة المسلَّم بها، والحُجج الدّامغة على صدق منزعه وصحّة دعواه بحكم طاقتها الإخباريّة المضاعفة وبفعل انبنائها على الديمومة واللزوم، إذ هما من أعمق المواطن اختلافاً بين الغريمين يدعي معهما كلٌّ واحد الفضائل لأهله، وينبري ثانيهما لدحض ما يدعيه الأوّل وإثبات ما يراه في عترته، وكلّ ذلك معدول به عن الفعلية إلى الاسمية، وإنّ من شأن ذلك أن يُضاعف من وهجها وعُلوقها في الذهن حال تلقّيها.

ثانياً: مستوى بلاغة الحِجاج:

وكما تتمخّض حجاجيّة الخطاب عن لغته بالمراوحة في أساليبها كما سلف تفصيله، فإنّ ما يتمخّض عن بلاغته أعمق دلالةً وأبعد أثراً في الحجاج؛ ذلك أنّ البلاغة متعلقة أبداً بالعاطفة، ومعلوم ما لذلك البعد العاطفي من طاقة لـ«ترشيح الخطاب أكثر من غيره لكي يكون حجاجيّاً، وبقدْر ما يتقوّى الجانب العاطفيّ يقترب الخطاب من الحجاج وينأى عن البرهنة»[٧٨]، وذلك لما توفره البلاغة من جمالية قادرة على تحريك وجدان المتلقي والفعل فيه وتوجيه سلوكه الوجهة التي يرتضيها المحاجّ. وتأسيساً على ذلك فمشغلنا ههنا معقود بمجاوزة حصر الوجوه البلاغية التي ركن إليها ابن الدودين في رسالته واعتبارها حبيسة مبدأ الإمتاع، إلى ضبط الأدوار الحجاجيّة المنجرّة عنها، والتي تسهم في رفد حجاجيّة خطابه ودعم طاقتيه الإقناعية والإقماعية في آنٍ معاً.

١. التصوير:

يؤسَّس فحوى التصوير في جوهره على منطق «الاستبدال»؛ استبدال للمفهوم المعنويّ المجردّ المراد تبليغه بمعنى آخر حسّي عينيّ، وإنّ من شأن ذلك رفد وظيفته الحجاجيّة بجعل حضورها في ذهن السامع أقوى وأبلغ، ووقعها على مسمعه أشدّ، ونفاذها إلى قلبه أيسر. وإلى مثل ذلك أشار الرمّانيّ حين عبّر عن فحوى التصوير المعوِّل على «إخراج ما لا تقع عليه الحاسّة إلى ما تقع عليه الحاسّة، وإخراج ما لم تجرِ به عادة إلى ما تجري به عادة، وإخراج ما لا يُعلَم بالبديهة إلى ما يُعلَم بالبديهة، وإخراج ما لا قوّة له في الصّفة إلى ما له قوّة في الصّفة»[٧٩]. وأيّاً كان من أمرٍ، فتتنوّع ضروب التصوير وتتمايز؛ إذ إنّ منها ما هو معتمِد على العبارة نفسها وطريقة تشكُّل عناصرها اللغوية في نسقها العباريّ، ومنها ما يعوَّل لفهمه على عنصر ما يقع خارج أُطُر الخطاب. ومن جملة ما أمكن حصره من فيض ذلك في رقعة خطاب ابن الدودين ما يردّف:

١. « وأمّا فخرك بعلمهم الشرائع، فمن أبدع البدائع، استنّت الفصالُ حتّى القَرعى».[٨٠]
٢. « والآن تذكّرتُ مساق أبي غُبشان، وما أنسانيه إلاّ الشيطان...، وأبو غبشان إنّما باع خدمته في البيت، وهبها وصمة سفيهنا العربيّ،... ».[٨١]
٣. « لكنّك بين همَج هامِج ورَعاع مائِج، (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء)».[٨٢]

والحاصل أنّ ابن الدودين في كلٍّ من النماذج السابقة آثر الاستعاضة عن القول المباشر الصّريح بآخر تصويريّ استعاريّ للاستدلال على صدق منزعه وصحّة دعواه، والحقّ أنّ استعاضته تلك عوّلت في (مادّتها) على فروع شتّى؛ إذ إنّه لم يختطّ لها مسلكاً واحداً يعتمد فيه على براعته الذاتية في تشكيل معالم الصّورة وخلقها، بل إنّه قد راوح بين أفانينها باعتماده عالم خطاب متلقّيه، بما فيه من مجمل كفاءاتهم المعرفيّة والنفسيّة والثقافيّة والرمزية المتجذّرة في أثناء أعرافهم، التي إليها تستند فحوى الصورة؛ ومن ذلك ما يطالعنا في أوّل النماذج من حيثُ اعتُمد فيه على المادّة المثليّة في بلورة معالمها عن طريق التشابه في العلاقة بين حالَي المشبه والمشبّه به، والتي يقوم مخيال المتكلّم بتوليدها مانحاً إيّاها دلالتها، فيما يعمل خيال المتقبِّل على اكتشاف العلاقة المؤهلة للربط بين ذينك الحالَين.

ولكي يكون بمقدورنا تمثّل مدى نجاعة هذه الصورة في رفد الأنساق الحجاجيّة في الخطاب من حيثُ ربأت

والحاصل أنّ ابن الدودين في كلٍّ من النماذج السابقة آثر الاستعاضة عن القول المباشر الصّريح بآخر تصويريّ استعاريّ للاستدلال على صدق منزعه وصحّة دعواه

عن مجردّ كونها تنميقاً في العبارة وزخرفاً في القول إلى مستند حجاجيّ ناجع، ويحضرنا ههنا ما اختطّه ديكرو من مبدأ «السلّم الحجاجيّ»[٨٣] الذي به تتّضح قوّة الحجج الجاهزة مقارنة بالأقوال المجرّدة العارية في خدمة النتيجة ذاتها، وذلك كما يأتي:

أمّا ثاني النماذج، فأشدّ شأواً في الحجاج وأعمق أثراً؛ ذلك أنّه يكشف مبلغ المماحكة والاصطراع

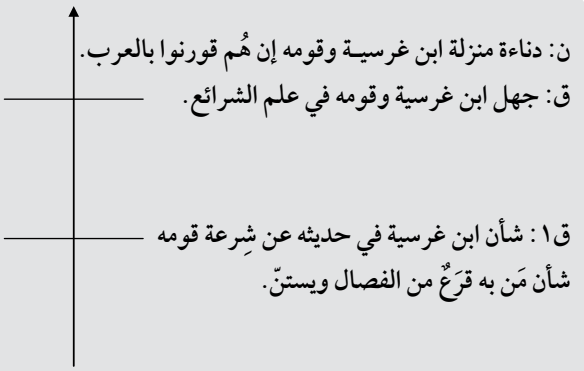

الصريح القائم بين الغريمين ابن غرسية وابن الدودين كلٌّ في رسالته، ويترجم مفاد مستنده الحجاجيّ الذي قد عمد إليه؛ فإذا كان ابن غرسية عوّل للتعريض بالعرب والمسلمين على شخصيّة متعالمة في الشهرة ضُربت مثلاً للنّدم والحمق والخُسران بقولنا: «أندم من أبي غبشان»[٨٤]، فإنّ ابن الدودين قد عوّل لنقضها وردّها على رأس صاحبها بما هو أدهى منها وأمرّ ممّا هو متعالم في الثقافة المسيحيّة خدمة للمضمون ذاته، وقد اعتمد في ذلك على شخصيّة يهوذا الحواريّ[٨٥] المعروف بالتلميذ الخائن للمسيح، الذي سلّمه لليهود مقابل ثلاثين قطعة فضّة، وبعد ذلك ندم على فعلته تلك، وردّ المال لليهود، ثمّ ذهب وقتل نفسه. وفي الإمكان التمثيل لتينك الحالتين بسلّم ديكرو الحجاجيّ كما يأتي:

وواضحٌ ما لكلّ من المســتندين الحجاجيّين اللذين لجــأ إليهمــا المتحاججين مــن وقع كونهما اســتمدّا

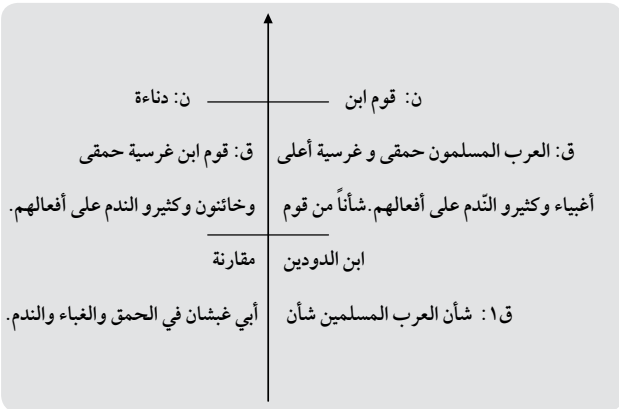

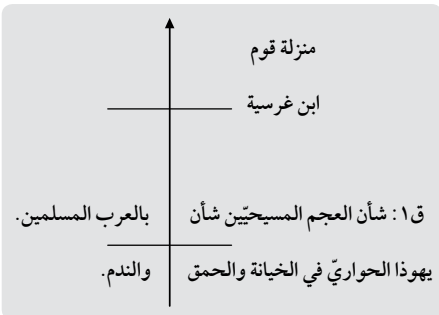

مادّتهمــا من طاقة مضاعفة تأكّــدت قدرتها على إذعان السّــامع وإقراره بحكم المتكلّم وتســليمه بثبوته كونها من قبيل المســلّمات القارّة في عرفــه هو، فكيف له أن يجهلها أو أن ينكرها؟! كذلك فمن الضرورة القول بأنّ شكل الصورة في مســتند كلٍّ منهما الحجاجيّ قد اتّخذ مسلك (الكناية) حيناً و(الاستعارة التمثيليّة) حيناً آخر، وتردّ أولاهما حين «يريد المتكلّم معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له فــي اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردّفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه» [٨٦]، وإنّ من شــأن ذلك أن يكون له دور أيّ دور في «دفع أنســاق الخطاب الحجاجيّة من حيث إنّ اســتبدال التكنية بالتصريح دون أيّ تغيير يلحق المعنى الحقيقيّ مؤدٍّ بالضرورة إلى بلــورة قيم تأثيريّة وتعبيريّة من شــأنها أن تفعل فعلها في المتلقّي»[٨٧]. أمّا ثانيتهما، فتؤسَّــس على اســتعارة حال لأخرى، والتقريب بينهما لدرجة المماهاة، ويتّضح ذلك في المادّة المثليّة خاصّة التي يقام فيها الشبه بين مضرب المثل ومورده.

إذا فمادّة الصورة المعوّل عليها قد تستمدّ من مصادر شــتّى، ويتّضح ذلك في ثالث النماذج من حيثُ اعتمد فيه ابن الدودين علــى الآية القرآنية المتعالمة في التعبير عن حال المنافقين، ووصف حالهم في تحيّرهم في أمر دينهم، لا يرجعون إلى اعتقاد شــيء على صحّة فهم، لا مع المؤمنين على بصيرة، ولا مع المشركين على جهالة، ولكنهم حيــارى بين ذلك. ولكنّ الــرأي عندنا بأنّ ابن الدوديــن قد وفّق ههنا في إقناع مخاطبيه من قومه بمبلغ منافحته عنهم وخرِّه دعائم خصمــه في ادّعائه الفضيلة لعترته من الأعاجم، ذلك أنّ مثل هذا المســتند المصوَّر ممّا هو رائج وقارّ في ثقافة المســلمين، وممّا قد يصعب على ابن غرسية وقومه تمثّلُه.

إنّ اعتماد ابن الدودين الصورة نهجاً بلاغيّاً راوح فيه بين مادتها حينا وشكلها آخَر قد أسهم أيّ إسهام في رفد حجاجيّة الخطاب ســواء أُريد به التقارب مع المتلقّي أو التنافر أو الحياد، وذلك لما تحوزه من طاقة نحتٍ لصورة حيّــة تدركها الحواس، وإثراءٍ للجانــب التخييليّ الذي يرشّــح الخطاب أكثر لكي يكون حجاجيّاً لقاء اعتمادها

على الاستدلال بمعنى على معنى، وإثبات معنىً مُدّعى بواسطة معنى هو منه بمثابة البيّنة. كذلك فألفينا (ميار)[٨٨] يطرح فكرة جوهريّة في الحجاج عمادها (التساؤل)، والذي يؤسَّس عليه منطق الصورة.

٢. الإيجاز:

لمّا كان التطويل في القول والإسهاب في الشّرح مؤدّياً إلى ملل المتلقّي وضعف قدرته على الانتباه والتركيز، فإنّ البلاغة قُرنت لدى العرب أبدا بِوَجَازَة العبارة والاقتصاد فيها ما أمكن، لدرجة حدّوا معها البلاغة بها وجعلوها ردّفاً لها[٨٩]. ولا غرو إذ إنّ هذا الملحظ يكاد يكون مبدأً تأسيسيّاً واشتراطاً ملحّا في الحجاج، ذلك أنّ الإيجاز يجابه العدوّين القاتلين في كلّ خطاب حجاجيّ وهما النسيان وعدم الانتباه[٩٠]، أي أنّ تلك العناية لم تأت اعتباطاً أو محضَ صدفة بل هي نابعة من علاقة الخطاب بالمتقبّل الذي هو عين مراده، وإنّ «القصير الموجز أنفذ إلى الأسماع، وأحسن موقعا في القلوب والأذهان، وهو في الصّدور أوقع، وفي المحافل أجوَل».[٩١]

وعليه، فمسعانا ههنا معقود بضبط معيار الوجازة في خطاب ابن الدودين ورصد الأدوار الحجاجيّة المنجرّة عنه حال التزامه به، فمن الواضح على البدء ضآلة حجم الرسالة من حيث لم تُجاوز الثماني صفحات من القطع الصغير، على أنّ منزع قصر الخطاب ومحدوديّته لا يعكس بحال وجازة عبارته؛ لضرورة اشتمال قلّة اللفظ في الإيجاز على فخامة المعنى بإيماء ولمحة دالّة عليه. ويطالعنا من رقعة خطاب ابن الدودين ممّا يتعلق بهذا

والحاصل أنّ ابن الدودين في كلٍّ من النماذج السابقة آثر الاستعاضة عن القول المباشر الصّريح بآخر تصويريّ استعاريّ للاستدلال على صدق منزعه وصحّة دعواه

الملحظ ما يردّف:

١. « أوَ ما علمت أنك إنّما سحبت من عقالك لعقّالك وقدّمت أوّل قدمك لسفك دمك، وبسطتَ مكفوف كفّك لسلطان حتفك، فقلّمتَ شبا أقلامك لاصطلامك، وحبّرت بحبرك لذهاب خبرك، ومشقت في قرطاسك لمشق راسك».[٩٢]

٢. « لأصيّرنّ عليك أيّها السخيف المضعوف عرض البساط أضيق من سَم الخِياط، ولأخلطنّ عصبك بقصبك، ولأجمعنّ بين سَحرك ونحرك، ولأخلّدنّك سمراً غابراً، ومثلاً سائراً، أو نشوّه محيّاك، ونحلق سبالك من قفاك، وتحتزم بزنارك، وتلحق بأديارك».[٩٣]

نستظهر من مجمل ما وردّ من نماذج آنفاً أنّ بعضها جاء خدمة لملحظ الإيجاز وترجمة له، وبعضها الآخر لم يُلمس فيه مثل هذا البُعد، إذ إنّ ما احتواه لم يكد ليُجاوز العبارات المتشاكلة والمتناسلة عن فرع معنويّ واحد غير أنّها تتراوح في العبارة، بل إنّ معظمها جاوز الوفاء بالمضمون المتشاكل إلى المشاكلة في الجانبين: التركيبيّ والإيقاعيّ، فجاءت جلّها – أو أزواج منها– على الوتيرة نفسها، وينطبق هذا البعد من النماذج من

حيث جراهما مجرى التهديد والوعيد في مفتتح الرسالة التـي ابتدرها ابن الدودين بنبرة غاضبة مشـحونة بدفق عاطفـي آثر التنفيس عـن مكبوته فيه رفعـاً لأفق توقّع غريمه ابن غرسية ممّا سيتبع في رقعتها من دحض وتفنيد وقمع وتبكيت له ولعترتـه، وإرضاء لمن رام إقناعه من بني قومه بأنّه قد دافع عنهم خير دفاعواستردّ لهم حقّهم الذي سُلب منهم على يدي ذاك الأعجميّ الشعوبيّ.

وتأتي صيغة التعبير المثليّ كما في (استنّت الفصالُ حتّى القَرعى)[٩٤] متعالمة ناطقة، ومعلومٌ ما للأمثال من نصيب وافر في المدوّنة البلاغية تسـلَّط فيه بؤرة الضوء على يسير لفظها وجسيم فحواها، وأنّ «من عجائبها أنها مع إيجازها تعمل عمل الإطنـاب»[٩٥]، وهي «كالرموز والإشـارة التي يلوَّح بها على المعاني تلويحاً، فصارت أوجز الكلام وأشدّه اختصاراً» [٩٦]. وعليه، فإنّ مثل هذه التعابير لا تتوافر على منحى فـي الحجاج يتيم ينحصر في بلورتها معالـم صورة قارّة في العرف مطابقة لمنطق رقعتهـا من الخطـاب تفعل فعلا مضاعفا فـي المتقبِّل العارف – كما سـلف تفصيله في الإبّان، بـل إنّها إنّما تتعدّاه لغيره لقاء اقتضاب لفظها على وفير مغزاها بإثارتها كوامن ما استقرّ في ذهنه ممّا هو محيط بفسيفسائها.

وعليه، فنلحظ ما قد وفت به صيغـة التعبير المثليّ من خدمة لمنزع الإيجاز فـي بقعتها، وأنّها وفّرت على ابن الدودين عناء الشرح والتفصيل والتطويل في فكرته التـي رام تبليغها حول ابن غرسـية الـذي يدّعي لقومه إحاطة ومعرفة بعلم الشـرائع على الرغم من أنّ جهلهم بذلك أوضح من أن يُشرح وأبين من أن يُبيَّن بحسب ابن الدودين، فكان أن عوّل علـى ذلك التعبير تأدية لغرضه بأوجـز عبارة ممكنة آثر بعدها أن ينكت من جهلهم ذاك نكتة وينبذ منه نبذة.

نلحظ التفاوت في تصنيع العبارات المسجوعة بين اعتماد فواصل مزدوجة أو ثلاثية أو رباعيّة أو يزيد بحسب مستوى التعقّد في الكتابة، ودرجة الدفق العاطفي والنفسيّ في كل مرحلة من مراحل الخطاب

٣. الإيقاع:

لعلّ من ألحّ ما يتمخّض عن وسـم الإيقاع البلاغيّ ممّا هو متعالق بموضوع دراسـتنا هذه ملحظ يؤول إلى فرعين: يقوم أوّلهما على تجـاوز اعتداده مقوّما ألصق بالشـعر منه بالنثر كونه محكوم بالـوزن والقافية؛ إذ إنّه يتحصّل من جملة الانتظامات والتوافقات الصوتيّة ممّا اصطلح القدامى على تسـميته بضروب (الموازنة)[٩٧] تأسيسـاً لصنع خطاب موَقّع على الرغـم من كون هذا البعد منتظر متوقّع في الخطاب الشعريّ ومَقصيّ مهمَلٌ في النثـريّ، كون المعاني أهمّ في هـذا الأخير منها في سابقه، غير أنّ «مما لا يُلتفت إليه حينا أن معنى العبارات نفسه قد لا يتجلّى كما ينبغي ولا يحقق دلالته المستوجبة إلاّ إذا أخضعهـا الناثر لمتطلبات إيقاعية يسـتجيب لها متلقي الخطـاب كونها تحقّق نوعاً من البروز من منظور التلقّي».[٩٨] أمّا ثاني ذينك الفرعين فناجمٌ عنه، ومرتبط بمجـاوزة اعتداد هذا العنصر البلاغي أداة تحلية وتزيين

وزخرف وتحسين، إذ هو عنصر فاعل في تصنيع المعنى وإنتاجه في خطاب أسِّس في جوهره على الإقناع أو أُريد به الإفحام.

وعليه، فممّا ينتظم في هذا المجرى محاولة رصد الوجوه التي بها تُرجم هذا العنصر في خطاب ابن الدودين محاولة منه في استمالة متلقيه، وغايتنا ههنا تسليط الضوء على ملحظ (التسجيع)[٩٩] دون غيره كونه الأوفى والأظهر في رقعته، وكون دراسته تجزئ عن تناول غيره من ضروب الموازنات الصوتية وما ينجرّ قد عنها من وظائف حجاجيّة تستهدف المخاطَب وترمي إلى ترسيخ فحوى الخطاب في خاطره، سواءٌ أكان متّسقاً جارياً على النسق نفسه، أو معدولاً به عن ملحظ الرتابة والتتابع الإيقاعيّ، ولعلّ هذا الأخير أبعد شأوا في الحجاج، وفيما يلي بيان وجهته وتفصيل مأتاه:

أولاً: مستوى الانتظام في نسق السّجع:

وفيه نلحظ التفاوت في تصنيع العبارات المسجوعة بين اعتماد فواصل مزدوجة أو ثلاثية أو رباعيّة أو يزيد بحسب مستوى التعقّد في الكتابة، ودرجة الدفق العاطفي والنفسيّ في كل مرحلة من مراحل الخطاب. ومن الضرورة الحافزة على البدء القولُ بأنّ رسالة ابن الدودين جاءت جلّها موَقّعة مسجوعة لم يخرج عن انتظام سجعها إلا ما ندر من العبارات، وأنّ السواد الأعظم من السجع جاء مزدوج الفاصلة لدرجة يخال المتقبّل معها أنّ إتباع ابن الدودين أوّل العبارات بثانيها ما كان إلاّ توخّيا لسلامة الإيقاع فحسب[١٠٠]، يتّضح ذلك من كون معظمها مرادف لأوّلها في الفحوى، موازٍ له في الدلالة، لا إضافة معنويّة بالغة الأثر ناجمة عن إتباعه به. ومن جملة ما يطالعنا في رقة خطاب ابن الدودين ممّا يندرج تحت هذا الملحظ ما يردّف:

١. « اخسأ أيها الجهول المارق، والمرذول المنافق».[١٠١]
٢. « أوَما علمت أنك إنما سحبت من عقالك لعقّالك، وقدّمت أوّل قدمك لسفك دمك، وبسطت مكفوف كفّك لسلطان حتفك، فقلّمت شبا أقلامك لاصطلامك، وحبّرت بحبرك لذهاب خبرك، ومشقت في راسك لمشق راسك».[١٠٢]

لا غروَ أنّ ابن الدودين قد عمد منذ مفتتح رسالته إلى محاصرة غريمه وتركيز القول حوله تأسيساً لما سيردّفه من فنون الفعل الضاغط عليه الفاعل، ولعلّ توجيهه الذكي له عن طريق السجع منذ ذلك المفتتح أيضاً ينبئ عن إدراكه ما لإيقاع الكلام وجِرسه من تقوية استمالته أو إقحامه في إطار المغزى الذي أراد به تبكيته، ومعرفته بأنّ السجع لا يرمي فحسب إلى إطرافه وتعجيبه. وينخرط في هذا السلك أوّل النماذج، من حيث ابتُدر نصّ الرسالة بهاتيك العبارتين المترادفتين المسجوعتين (سجعاً مُطرَّفاً)[١٠٣] مضاعفة لجرعة تحقيره، وتوكيداً للمعنى الذي رامَه في آن. وتكاد تكون النماذج التي حضر فيها هذا الضرب من السجع مزدوج الفاصلة أوسع من أن تحصى في متن الرسالة، على أن عناية ابن الدودين به لم تكن لتصرفه عن مجاوزته بالإغراق في اعتماد فواصل ثلاثية ورباعية أو يزيد كما هو بادٍ في ثاني

النماذج التي أكسبت الخطاب ليونةً وسباطةً باتحادها والتقائها حول كاف المخاطبة، وكأنه خيط ناظم يلمّ به شعث تفرّقها، والتي لا توحي إلاّ بمضاعفة جرعة الهزء به والسخرية منه بنبرتها المتعالية، وتوخّياً إلى استيقافه عبر سماعه صداعاً استتباعاً في خاطره، ليكون من ثمّة مدعى لعلوقها فيه على الرغم من كونها سريعة طائشة، وإنّ من ألحّ ما يذكر ههنا أنّ مضمون الكلام موجّه لإيقاعه.

ب- العدول عن اتّساق السّجع:

وفيه يُنتَهك انتظام السجع الذي جرى عليه تراسل العبارات وتوالدها فتُكسر بذلك رتابة سجعها وتشبّعه بغية الانحراف إلى غرض آخر، أو (تبئير) فحوى العبارة المعدول بها عن نسق انتظام ذلك السجع. وممّا أمكن استخلاصه من رقعة رسالة ابن الدودين من ذلك ما نصّه:

١. « وأمّا فخرك بعلمهم الشرائع، فمن أبدع البدائع، استنّت الفصال حتّى القرعى، وجهلهم بذلك أوضح من أن يُشرح، وأبين من أن يُبيَّن».[١٠٤]

٢. « وحسبك بهم جهلا أنهم يعتقدون إلها نبيّهم، فوسموه بالرّب المعبود، وصيّروه بعد مصاوب اليهود، فاعجبْ لجهلٍ يجمع بين هذين الطرفين».[١٠٥]

سبقت الإشارة إلى أنّ هذه الطريقة المؤسّسة على كسر رتابة الإيقاع بالعدول عن نسق السجع لأبعد شأوا في الحجاج وأظهر؛ ذلك أنّ فيها انتهاكاً لأفق انتظار المتقبّل وإتياناً باللامتوقّع واللامنتظر، وإنّ ذلك لممّا يؤدي إلى ممارسة تأثير ضاغط عليه يقوده إلى العناية بالمقطع المعدول به عن أفق محيطه والانفعال به انفعالاً قد يقوده إلى التسليم بفحواه. وعليه، فالتعبير المثليّ في النموذج الأوّل قد قام مقام العبارة النابية الخارجة عن اتّساق محيطها، ووقع من رقعة الخطاب في موضع لم يكن فيه ما «يطغى عليه، ويشغل النفس عن الالتفات إليه، لذا فقد عُدّ أشهر موضع وأشدّه تلبّساً بعناية النفس، وبقيت النفس متفرّغة لملاحظته والاشتغال به، ولم يُعقها عنه شاغل»[١٠٦]. وهذا هو عين مراد ابن الدودين من حيث أراد مضاعفة جرعة الهزء والإمعان في السخرية وتصوير خيبة غريمه اتكاء على هذا التعبير المثليّ الذي سلف تفصيله.

وقد تتفوّق كثافة المحتوى الإبلاغيّ على العناية بالسجع ورتابته فتصرف الكاتب عنه مندفعاً إلى ما يقتضيه المقام، خاصة إذا كان مقام هزء مقذع وسخرية مُمضّة. ويترجم هذا البعد بثاني النماذج من حيث أراد به ابن الدودين قفل فكرة قصور معتقدات قوم ابن غرسية الدينية الناجمة عن تعهّدهم إنجيلهم بالتحريف، واعتبارهم نبيهم إلهاً، فخرجت العبارة الأخيرة عن نسق السجع فيما قبلها وقفلت بها مرحلتها تركيزاً لكثافتها الإبلاغية التعجبيّة الموجّه بها إلى المخاطَب العارف من قوم ابن الدودين، فكانت أداة معبّرة عن توتّر الإيقاع،بها ينشط ذهن المخاطب لدى تلقيها.

الخاتمة:

إن من جملة ما خلُصت إليه الدراسة أنّ رسالة الدودين بما هي منطوية على دلالة جدليّة مع الآخر

أنبــأت عن تعالق كبير بفحوى عمل المحاجّة؛ إذ ما كان ليمخّضها لولا بروز محفّز انفعالي صيّر معه انفعاله قولاً بديلاً للعنف، واستعاض به عن القوة المادية المتأتية من مبدأ الاصطراع على مطلوب أو مسلوب رامياً إلى الفعل في المتقبّل بإفحامه أو إزعاجه أو إقناعه أو إخراجه عن اطمئنانه. ومن الحقيق بالذكــر أنّ خطاب ابن الدودين نزع إلــى مخاطبة ضربين من المتقبليــن وصولاً به إلى نفاذيته المرومة: خــاصّ محدّد في الخطــاب تحديداً صريحــاً وصارماً وُجّه نحوه الكلام وحضُرت هويته في ذهن ابن الدودين وفي ثناياه كلّها، وعامّ كونيّ مشــارك أو مفارق لفضــاء ابن الدودين الزمانــيّ أو المكانيّ أو لكليهمــا، ولكنّ قيمتــه المرجعية فــي الخطاب نبعت من كونه الحكَم على خطابَــي الغريمين المتحاججين، وتأسيساً عليه تراوحت استراتيجياته الخطابية بين توبيخ وإقناع فــكان أن تفاوتــت معها أفانين اللغــة والبلاغة بترجيحه من إمكانياتهــا خيارات على أخرى يُتوقع أنها أكثر نجاعة في سبيل تحصيل غرضه أو أغراضه المرومة من إنشائه خطابه.

ومن ههنــا تنبع جدوى التوســل بمنهجية الحجاج بوصفها قوة إجرائية رصينة آثرنا معها التعرّض لمستويي اللغة والبلاغة مســتهدفين ما كان ابن الدودين أجراه من ترجيح لإمكانات تنداح في سلكيهما على أخرى ضمن ما اصطلحنا على تســميته بمنطق العدول، مســتبطنين الأدوار الحجاجيّــة المنجرّة عن مثلــه، فخرجنا بأنّ من أظهر ما لجأ إليه ترجمــة لهذا المنزع من إمكانات اللغة إنشاءً: الاستفهام والشرط،وخبراًالحصر فالنفي، ناهيك عن منطق غلبة الاســمية على الفعلية في رقعة الرسالة، وما كان له من دور في إشــعار المتقبل على أنّها من قبيل الحجج القارة المسلم بها. أمّا منحى البلاغة، فإنّ شأوه أبعد في عمل المحاجّة لما به من جمالية كفيلة بتحريك وجدان المتقبّل والزج بــه لتبني أطروحة الخطاب، ولا غرو أنّ بلاغتي التصوير والوجازة كانت أعلاها كعباًممّا اختطــه ابن الدوديــن في حجاجه، مــن حيث تفاوتت ضروبها بين تشبيه فاستعارة تمثيلية فتمثيل منتزَع متأوَّل مُســتنَدٍ فيه إلى ما قرّ في العرف من آيات فأشعار فأمثال عملــت على تفريع جــذوة انفعاله فأصــاب في وصفه وغُيِّبت مسؤوليته عن قوله.

وممّا تحســن الإشارة إليه أنّ دراســتنا هذه بما هي موســومة بـ(بلاغة الخطاب الحجاجــي) أنّ ممّا ينداح في أنواعها ضمــن منطق الحجاج بما هو بلاغة جديدة: محــاور ثلاثة ســلف تفصيلها، وهي: اختيــار الحجة، تعهّدها بالأســلوب (لغة وبلاغة)، ترتيب أجزاء القول. وعليــه، فإنّ ثالث هذه المحــاور من حيث كونه يدرس ترتيب الحجج وتكثيفها أو تشــظّيها في كلّ موضع من رقعة الخطاب (المطالع، المتــون، الخواتيم) قد غُيّب عن إطار هذا البحث كون المقام لا يتّسع لمخضه أوّلا، ولأنّ معقد القيمــة المراد تبئيره في ثنايا هذه الدراســة موصول بدرس إمكانيات اللغــة والبلاغة وما قد يتفرع

تراوحت استراتيجياته الخطابية بين توبيخ وإقناع فكان أن تفاوتت معها أفانين اللغة والبلاغة

عنهمـــا من ملاحظ فـــي الحجاج لطيفة، فلعلّ تســـليط الضوء عليهما يُجزئ عن مخض غيرهما.

الهوامش

* نزار قبيلات باحث وأكاديمي أردني، أستاذ مساعد الجامعة الأردنية. أتمّ دراساته الأكاديمية فيها وله أبحاث عدة منشورة. من مؤلفاته **البنى السردية في روايات سميحة خريس** (٢٠٠٨) و**البوليفونية في الرواية الأردنية**(٢٠١٢).

** بلسم العمري باحثة وأكاديمية أردنية، محاضر متفرغ في جامعة الأميرة سمية للعلوم والتكنولوجيا من مؤلفاتها **منزلة الأمثال العربية في ترسل ابن زيدون: دراسة في ضوء نظرية الحجاج**، رسالة ماجستير غير منشورة (٢٠١٣).

١ انظر مثلاً: فايز القيسي: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٨٩، ص٢١٤.

٢ المرجع نفسه، ص٢١٤.

٣ قال فيه صاحب المسهب: "من عجائب دهره، وغرائب عصره، وهو من أبناء نصارى البشكنس، سبي صغيرا وأدّبه مجاهد مولاه ملك الجزر ودانية". ابن سعيد، علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك (ت: ٦٨٥هـ): المغرب في حلل المغرب، (تحقيق: شوقي ضيف)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤، ج٢، ص٤٠٦.

٤ ينظر: الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام (ت:٥٢٤هـ): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، ق ٣، المجلد الثاني، ص٧٠٥.

٥ انظر ترجمته في: المغرب، ج٢، ص٣٢٢، والذخيرة، ق٣، مج ٢، ص:٧٠٣. وتذكر مصادر الأدب العربي أن هناك ردّود أخرى على رسالة ابن غرسية مثل ردّ أبو الطيب عبدالمنعم القروي، وردّ ابن عباس. انظر: الذخيرة، ق ٣، م٢، ص٧٢٢، وص٧٤٦.

٦ الذخيرة، ق٣، مج٢، ص٧١٥.

٧ عبد الله صولة: الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته (ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود، منشورات كليّة الآداب بمنوّبة، -١٩٩)، ص٢٩٩،.

٨ المرجع نفسه.

٩ عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، منشورات كلية الآداب بمنوبة، تونس، ٢٠٠١، ص٤٠، نقلا عن: ميشال ميار (Michel Meyer): المنطق،

اللغة والحجاج (Logique، Langage et argumentation)، باريس، ١٩٨٢، ص١١٢.

١٠ عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، نقلاً عن ديكرو وأونسكومبر (Anscombre et Ducrot): الحجاج في اللغة (L›argumentation daans la langue)، بروكسل، ١٩٨٣، ص٨.

١١ شكري المبخوت: نظرية الحجاج في اللغة (ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم)، ص٣٦٧.

١٢ المرجع نفسه، ص٣٧٨.

١٣ محمد علي القارصي: البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار (ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم)، ص٣٩٥.

١٤ . ميشال ميار (Michel Mayer): المنطق، اللغة والحجاج (Logique، Langage et argumentation)، ص٩٨، نقلا عن محمد علي القارصي: البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار (ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم)، ص٣٩٥.

١٥ انظر: أرسطو طاليس: فن الخطابة، (حققه وعلق عليه: عبد الرحمن بدوي)، مكتبة النهضة المصرية' القاهرة، ١٩٥٩. وانظر من الدراسات التحليلية التي اعتمدت مبادئ أرسطو الحجاجية: أحمد قادم: رسالة ابن غرسيه: مقاربة بلاغية حجاجية، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة، تأليف مجموعة من المؤلفين، ط١، دار ابن النديم للنشر والتوزيع، ٢٠١٣، ج٢، ص١٢٦٧ وما بعدها.

١٦ يأخذ حمادي صمود هذه الاصطلاحات من الجاحظ، حيث يعتقد أنه يوافق المعنى اليوناني المشار إليه. انظر: حمادي صمود: مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح (ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج)، ص١٤.

١٧ أرسطو طاليس: فن الخطابة، ص١٨١.

١٨ حمّادي صمود: مقدّمة في الخلفية النظريّة للمصطلح، ضمن كتاب أهمّ نظريّات الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، ص٢٠.

١٩ حازم القرطاجنّي: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، (تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة)، منشورات دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢، ص٣٦١.

٢٠ المرجع ٢، بلسم، ص٧٤.

٢١ أيكو، إمبرتو: القارئ في الحكاية التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، ترجمة: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط١، ١٩٩٧، ص:٦٧، ٧٣

٢٢ انظر: بيرلمان وتيتيكاه (Perelman et Tyteca): مصنّف في الحجاج (Traite de l›argumentation)، ص:٢٣٧. وينظر: عبد الهادي الشهري: استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ط١، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤، ص: ٢٣٢ وما بعدها.

٢٣ انظر: أبو هلال العسكري (ت:٣٩٥هـ): كتاب الصناعتين، (تحقيق: أحمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم)، دار إحياء الكتاب العربية، القاهرة، ١٩٥٢، ص١٧٣.

٢٤ انظر: أوليفي روبول: هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟، (ترجمة: محمد العمري)، مجلة علامات في النقد، ج٢٢، المجلد٦، ديسمبر، ١٩٩٦، ص٧٨.

٢٥ يرى د. صلاح فضل أن الدراسات البلاغية الحديثة جاءت لتغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة مقتضى الحال. انظر صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ٢٠٠٩، ص٣٢.

٢٦ انظر: العسكري: كتاب الصناعتين، ص١٧٣.

٢٧ بلسم العمري: منزلة الأمثال العربية في ترسّل ابن زيدون: دراسة في ضوء نظرية الحجاج، رسالة جامعية- الجامعة الأردّنية،٢٠١٣، ص ٨٥.

٢٨ محمد سالم الأمين: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، المجلد ٢٨، العدد٣، مارس، ص ٦٨.

٢٩ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

٣٠ انظر: بنوا رونو (Renaud Benoit): النص الحجاجي (le texte argumente)، منشورات كيباك، ١٩٩٣، ص ١٧.

٣١ انظر: سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم، ص٢٧.

٣٢ انظر: محمد سالم ولد الأمين: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، ص٦٣.

٣٣ سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم، ص٣٦.

٣٤ انظر: بنوا رونو: النص الحجاجي، ص: ١٨.

٣٥ انظر: سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم،

ص٢٨.

٣٦ انظر: كورنيليا فون راد- صكوجي: الحجاج في المقام المدرسي، ط١، وحدة البحث في تحليل الخطاب، منشورات كلية الآداب منوبة، تونس،٢٠٠٣، ص:١٤- ١٥. وينظر: هيثم سرحان: الخطاب الحجاجي في شعر بشار بن بردّ: مقاربة في تحولات الهويّة الثقافية، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد١١، نوفمبر، ٢٠١٣، ص٨١.

٣٧ ينظر: طه عبدالرحمن: التواصل والحجاج: سلسلة الدروس الافتتاحية (الدرس العاشر)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أغادير، المملكة المغربية، ١٩٩٤، ص: ٨-١٠.

٣٨ انظر كتابه: استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٥٢ وما بعدها.

٣٩ المرجع نفسه، ص٢٥٧.

٤٠ انظر: طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٢٢٤.

٤١ عبد الهادي الشهري: استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٣٢٤- ٣٢٥.

٤٢ طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط٢، المركز الثقافي العربي، المغرب، ٢٠٠٠، ص٣٨.

٤٣ حمادي صمود: مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص١٤.

٤٤ محمد سالم ولد الأمين: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، ص٧٢.

٤٥

٤٦ انظر: ابن الزملّكاني، كمال الدين أبو المكارم عبد الواحد بن عبد الكريم (ت:٦٥١هـ): البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، (تحقيق: خديجة الحديثي، أحمد مطلوب)، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٤، ص٣٠٥.

٤٧ الذخيرة، ق٣، مج٢، ص٧١٥.

٤٨ الذخيرة، ص٧١٦.

٤٩ الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله (ت:٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن، دار الكتاب العلميّة، بيروت، ٢٠٠٢، ج٢، ص٣٣١، (بتصرّف).

٥٠ عبد الهادي الشهري: استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص٣٠٣.

٥١ الحسين بنو هاشم: آليات الحجاج في كشف ما هو في الحقيقة لجاج، مجلة عالم الفكر، العدد٢، المجلد٤٠، أكتوبر- ديسمبر ٢٠١١، ص٥٣، نقلا عن: بيرلمان وتيتيكاه Perelman et Tyteca)): مصنّف في الحجاج Traite de l'argumentation))، ص٢١٤.

٥٢ فايز القيسي: أدب الرسائل في الأندلس، ص٢١٨.

٥٣ الذخيرة، ص٧١٥.

٥٤ الذخيرة، ص٧١٦.

٥٥ الذخيرة، ص٧١٦.

٥٦ فايز القيسي: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ص٢١٨.

٥٧ الذخيرة، ص٧١٦.

٥٨ عبد الهادي الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص٣٥٢، (بتصرف).

٥٩ الذخيرة، ص٧٢٠.

٦٠ المصدر نفسه، ص٧٢٢.

٦١ الذخيرة، ص٧٢٢.

٦٢ بلسم العمري: منزلة الأمثال العربية في ترسل ابن زيدون، ص١٢٤.

٦٣ المصدر نفسه، ص٧١٦.

٦٤ المصدر نفسه، ص٧١٧.

٦٥ عباس حسن حسن: النحو الوافي مع ربطه بالأساليب البلاغية الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١، ج٤، ص٣٦٩.

٦٦ ابن يعيش، موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي النحويّ (ت:٦٤٣هـ): شرح المفصّل، عالم الكتب، بيروت، -١٩٨، ج٨، ص١٤٤.

٦٧ السكّاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي (ت:٦٢٦هـ): مفتاح العلوم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٧، ص٣٠٧.

٦٨ الذخيرة، ص٧١٥.

٦٩ الذخيرة، ص٧١٥. وانظر كذلك قوله: لا يُطفأ وجهان ذلك السعر... " الذخيرة، ص٧١٧.

٧٠ عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة، ص٤٤٨.

٧١ الذخيرة، ص٧١٧.

٧٢ المصدر نفسه، ص٧١٩. وانظر كذلك قوله: "ما حاكوا قطّ

برودا... "، "وما سُمع في الأزمان... "، " وليس الأمر كما توهّمت..."، الذخيرة، ص ٧١٧، ٧١٨، ٧٢٠.

٧٣ بلسم العمري: منزلة الأمثال العربية في ترسّل ابن زيدون، ص١٢٢.

٧٤ المرجع نفسه، ص١٣٠.

٧٥ ابن الأثير، ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد الجزري (ت: ٦٣٧هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، (تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة)، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٣، ج٢، ص٥١.

٧٦ الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله (ت:٧٩٤): البرهان في علوم القرآن، دار الكتاب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢، ج٢، ص٣٩١.

٧٧ الذخيرة، ص٧١٥. وكذا في الصفحات: ٧٢٢،٧٢١،٧١٧،٧١٦

٧٨ محمد الولي: مدخل إلى الحجاج: أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، عالم الفكر، العدد٢، المجلد ٤٠، أكتوبر- ديسمبر، ص١٦، (بتصرّف).

٧٩ الرمّاني، أبو الحسن علي بن عيسى (ت: ٣٨٤هـ): ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، (تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلاّم)، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٧٦، ص٧٤ وما بعدها.

٨٠ الذخيرة، ص٧١٩.

٨١ المصدر نفسه، ص٧٢١.

٨٢ المصدر نفسه، ص٧١٥.

٨٣ انظر مثلا: رضوان الرقبي: الاستدلال الحجاجي وآليات اشتغاله، مجلة عالم الفكر، العدد٢، المجلد٤٠، أكتوبر- ديسمبر، ٢٠١١، ص ٦٧- ١١٨.

٨٤ مجمع الأمثال، ج ١، ص ١٤٥.

٨٥ ينظر: عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، دار الجيل، بيروت، ١٩٦٦، ص٥٠٠ وما بعدها.

٨٦ الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١هـ): دلائل الإعجاز في علم المعاني، (تصحيح وتعليق: محمد رشيد رضا)، مكتبة القاهرة، ١٩٦١، ص١٠٥.

٨٧ بلسم العمري: منزلة الأمثال، ص١٦٥.

٨٨ انظر: محمد علي القارصي: البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص ٣٧٨- ٤٠٢.

٨٩ انظر: العسكري: كتاب الصناعتين، ص١٩٣.

٩٠ انظر: أوليفي روبول: هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغيّ؟، ص٧٧.

٩١ العسكري: كتاب الصناعتين، ص١٧٤. وانظر كذلك فيما وردّ لدى أهل البلاغة حول ملحظ الإيجاز: تقي الدين أبو بكر الأزراري: خزانة الأدب وغاية الأرب، (تحقيق: كوكب دياب)، دار صادر، بيروت، ٢٠٠١، ج٢، ص٢٥٨ وما بعدها. ومحمد كردّ علي: رسائل البلغاء، مطبعة دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة، ط٢، ١٩١٣، ص٤٠٢.

٩٢ الذخيرة، ص٧١٥.

٩٣ المصدر نفسه، ص٧١٥.

٩٤ انظر: مجمع الأمثال، ج١، ص٦٧.

٩٥ العسكري: كتاب الصناعتين، ج١، ص٥.

٩٦ القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي الفزاري (ت:٨٢١هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٢، ص٢٨٦.

٩٧ وهي نوعان: لفظية، ومنها: الجناس والسجع والإتباع وتكرار الألفاظ والاشتراك في الوزن الصرفي، ومعنوية، ومنها: الطباق والمقابلة كونهما لا يتأتيان من أصوات واضحة العيان ملموسة الأثر في السمع، بل من قيامهما على فكرة التضاد والتقابل. انظر: أماني سليمان علي عبد الله: الأمثال العربية القديمة: دراسة أسلوبية- سردّية- حضارية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (محمود السمرة مشرف)، الجامعة الأردّنية، ٢٠٠٥، ص٥٦ وما بعدها.

٩٨ بلسم العمري: منزلة الأمثال العربية في ترسل ابن زيدون، ص ٢٠٣.

٩٩ انظر في أنواعه: العسكري: كتاب الصناعتين، ص٢٦٠ – ٢٦٥.

١٠٠ تحسن الإشارة ههنا إلى أنّ ابن الدودين لجأ إلى تسهيل الهمزة أحيانا طلبا لمراعاة الإيقاع، ومنه في رسالته قوله: " فاتّسقت الحالان، ونفقت السوقان، وما سُمع في الأزمان بأغربَ من هذا الشان "، الذخيرة، ص٧١٨.

١٠١ الذخيرة، ص٧١٥.

١٠٢ الذخيرة، ص٧١٥. وانظر كذلك منه الذخيرة، ص ٧٢٢، ٧١٩.

١٠٣ وهو متأت من اشتراك اللفظين في التقفية رغم تباين عدد الحروف المؤدي إلى تفاوت الوزن الصرفي. ينظر: أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار الجيل،

بيروت، ٢٠٠٢، ص٤٠٤.
١٠٤ الذخيرة، ص٧١٩.
١٠٥ المصدر نفسه، ص٧٢٠.
١٠٦ حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص٢٧٦.